# النّفس الإنسانيّة في نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب
# مرتكزات وتأويل

عبد الله بلعودة❖ جامعة محمّد لمين دبّاغين❖ سطيف 2 ❖ الجزائر

**ملخص**

يكشف القارئ لنهج البلاغة تركيز وإشارات الإمام علي رضي الله عنه على قضايا النفس الإنسانية ومرتكزاتها التي تتأسس من خلالها، هذا العالم المليئ زخما ومعنى ونفاسة، يدعونا إلى محاولة استكناه خفاياه.

كما يخبرنا الإمام عن هذه النفس أنها ذات تجليات وأنواع وأحوال، أي أن حياة هذه الذات كاملة متنوعة. وإن وضع اليد على المبادئ المركبة لها هو وضع اليد على إيجاد مخارج لمشكلة الذات الإنسانية، بمعنى أن فهمها هو فهم للإنسان.

**Abstract**

*The reader of the "Nahdj el Balagha" will discover that Imam Ali was interested in the signs that brought out the problems of the human soul and its foundations through the study of the human self, and its mechanisms with which man is perceived. . Imam Ali challenges us to discover this man who appears according to a typology and a taxonomy of his essence. And it is from the determination of the concept of the "self" that one discovers the man with his ideal image.*

**مقدمة:**

يأتي الحديث عن الحياة الفردية، على اعتبار أن التطبيق للسلوك الإنساني إنما يحصل بفاعله الحقيقي الإنسان، باعتباره الكائن الذي يتصرف بهيئة دالة على وجوده الخاص في الزمان والمكان، وكونه المعبر عن ذاته، فهناك بصمة ذاتية من فكره وفعله وسلوكه تطبع حياته ويومياته، وتجسد فعلا تشخصا حالا في الوجود، إنه التصرف القابل للملاحظة والقياس، المجدد للطبيعة البشرية القائلة بإمكانية تحقيق الحياة الفردية.

فحياة الإنسان الفردية لها صبغة تثمن تكريمه، وتثبت تفضيله، وتؤسس أنه المخلوق المقوم. وهكذا ينبسط أمام هذه الهالة التكوينية الحاصلة، ومن ثم يتعين عليه أن يزيل كل نازع يجعله ينقبض، وبين هذه الهالة التي كانت الكرامة الأولى، وفعله في الحياة إن كان حسنا تكون له الكرامة الثانية = التكريم. وأما إن اهتز هذا الفعل فإن خسارة الكرامة الثانية تصبح ظاهرة، كما تُلحِق بالكرامة الأولى تشوها دخيلا على الفطرة – ملحقا، ملصقا بالنفس، يهترئ به وجوده. وأداؤه في الحياة من حيث المعنى، والمعايير، والقيم، وبينها تتلخص أبعاد وجوده وحياته.

فهل تستطيع الحياة الفردية/ النفسية أن تعبر عن تكريمه؟! وهل تستطيع هذه الحياة أن تتماثل مع الغاية من وجوده؟! وهل لديه آليات تنفيذ طموحه ليبقي على الكرامتين تمييزا له، وتكميلا لاستحقاق معنى الحياة؟!..

**أولا: المفهوم والمكوّن:**

**1ـ مفهوم النفس:**

جاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس(395هـ): "النون والفاء والسين أصل واحد يدل على خروج النسيم كيف كان، من ريح أو غيرها وإليه يرجع فروعه، منه التنفس: خروج النسيم من الجوف، وذلك أن في خروج النسيم روحا وراحة".[1] وهذا الخارج من الجوف هو الروح التي تسكن هذا الجسد الإنساني فتمنحه الحياة والحركة،

والنشاط والمزاولة، كما أنه اندفاع محرك لكل القوى التي يتمتع بها الإنسان، وفي لسان العرب لابن منظور(711هـ): "النفس: الروح..، والنفس ما يكون به التمييز فشاهدهما قوله سبحانه: ﴿**اَللهُ يَتَوَفَى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا**﴾ فالنفس الأولى هي التي تزول بزوال الحياة، والنفس الثانية التي تزول بزوال العقل"، والنفس يعبر بها عن الإنسان جميعه .. روي عن ابن عباس أنه قال: لكل إنسان نفسان: إحداهما نفس العقل الذي يكون به التمييز، والأخرى نفس الروح الذي به الحياة..."، قال: "وسميت النفس نفسا لمتولد النفس منها واتصاله بها، كما سموا الروح روحا لأن الروح موجود به"،[2] فمعاني الحركة والدبيب، والحياة ظاهرة من خلال تقصي مدلولات كلمة "نفس"، ومن ثم يصبح هذا المعنى حالة من المعنى المعيش، الذي يتمثله الفرد، وهو يسعى في تنشيط حياته، وتحفيز قواه ليكون هو التحقق المباشر لمعنى وجوده باعتباره مخلوقا متميزا يعقل حركته.

فالوعي هو طريق هذا الإدراك والتحقق النهائي للوجود الفردي، وفي البحث عن الطبيعة المتشكلة بفعل الخلقة والنفخة الإلهية، قال تعالى: ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾.[3] يكون المراد من المعرفة بيان المقصد الإلهي من خلقه للإنسان، وتصبح النفس هي طاقة الروح الباعثة للأسرار، يقول ابن مسكويه: "فليس إذن هي الحياة، بل إنما تولد في البدن حياة، وإذا كانت حياة البدن في النفس وجب أن تكون الحياة للنفس أولا وللبدن ثانيا"،[4] كل هذا يؤكد على أهمية هذا الجوهر النفيس، والكنز الذي يحويه البدن، وقد ارتفع هو بهذه الطاقة، والإمكانية إلى أن أصبح يتمتع بالقابليات المهيئة لتنظيم هذا المكون، وجعله يتراقص مع هيئة النفس، ويتماثل مع كل أمر ليصنع الحياة، فالجسم والنفس علامة مشكلة لتركيب تام متكامل هو الإنسان يميزه الإدراك، وهذا التكامل يمنح الإنسان وعيه الضروري بالحياة والوجود، وأنه ملزم بأداء واجبه ووظائفه. وعليه يكون مفهوم النفس عند الجرجاني (816هـ) أنها: "الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية، وسماها الحكيم الروح الحيوانية، فهو جوهر مشرق للبدن".[5] وهذا المفهوم يركز على عناصر رئيسة هي:

أ- جوهر بمعنى حامل للأضداد ( جهل/ علم...).

ب- اللطافة.

ج- حامل لقوة الحياة والحس والحركة.
د- الإرادة.

إن هذه المقومات تجعل النفس تتمتع بالقابليات المتفتحة على النمو في الحياة بشكل مطواع سلس، رغم صعوبة ذلك. وهذا يكون مع حسن السياسة والتصرف، هذا القوام النهائي من شكل، وجوهر، حياة، هو دال إنساني؛ دال على كون خاص، وعالم مخصوص، إنه الإنسان الذي أخذ خاصيات نوعه؛ أي خاصيات تميزه.

هل يمكن لتعدد زوايا النظر في عالم النفس الإنسانية الإمساك بالحقيقة؟ وهل يمكن الظفر باللحظة الهاربة من أجل الحصول على المعنى؟! كل هذا وغيره ممكن، وسنستفيد من كلام الأمام في وضع تصور لمعنى حياة النفس، إذا تم استخلاص فكرة النفس من منابع التأصيل للحقيقة الإنسانية، وسيكون القرآن مفتاح ذلك. ومن ثم ينبغي إعادة محاولة فهم وقراءة للنفس تجنح إلى إدراك الحقائق في مستواها الكوني، المرتبط بالغايات والمقاصد، ليخرج الإنسان بهذا من العبثية والعدمية والإكراه، والفوضى المتفلتة، البعيدة عن كل اهتداء ليقود ذاته إلى الترقي الكمالي الذي يرفع الإنسان إلى أفق يليق بتكريمه.

لا يتاح للإنسان معرفة عالم من العوالم الموجودة، وفهم سر تكوينها هكذا بيسر، وإنما يكون الباحث أمام موانع تقف دونه والحقيقة، حيث سنحتاج إلى التبسيط المجلي لحقيقة النفس وقواعد عملها، وسرها الخفي وتفاعلها مع غيرها، وكيفية تشكل بنائها، وكله يدخل في خانة التأبي.

يضعنا القرآن الكريم أول ما يضعنا أمام هذه الحقيقة الكاشفة لبنية النفس الإنسانية حيث يقول تعالى: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**﴾.[6] هذه أربع آيات معالم ناطقة بحقيقة هذه النفس وتكوينها، ومقوماتها، وفي ضوء هذه الآية يمكننا استخلاص المبادئ المكونة للنفس وتركيبها وهي:

**1- النفخة الإلهية (الروح):** ويحدد هذا المبدأ في المكون النفسي الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾.[7] والتي تضمنت القضايا الآتية:

- الإشارة إلى البدن المخلوق من طين.
- الخلق الإنساني خلق فيه سواء.
- النفخة سر إلهي و روح إلهية.

يقول جودت سعيد : "إن الذي أودع فيهم هو العلم القابل للزيادة، روح المعرفة، روح قانون حياة الجسد، وقانون الروح الذي هو العلم والكتاب والفهم والتسخير"،[8] فهذا المبدأ: نفخة الروح الإلهية، هي علم وقانون يترك أثره في النفس الإنسانية، فيصبح هذا الطين= الجسد، حياة ومعنى، بينما الروح هو "من خارج التكوين الطبيعي"،[9] كما يظهر ذلك في الآية الكريمة: ﴿**ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ**﴾،[10] فبعد بيان سر النفخة والروح "ربط الله بين السمع والبصر والأفئدة ونفخ الروح، فجعلت مسؤولية الإنسان في الترقي بقوى الإدراك هذه ليعلو على سنة الطبيعة المادية التي "تشيأت" فيها نفسه وحواسه وبدنه".[11] **ومن ثم يصبح الخروج من حالة الطين= الجسد واجبة،** لأن أدوات هذا الإمكان مزودات علمية موجودة منحت للإنسان من أجل هذه الغاية، وعلى هذا الأساس تكون نفخة الروح، مقوم النفس في النهوض بأداء وظيفته وبيان سر خلقه، ذلك أنه خليفة الله في الأرض.

**2- فكرة السواء:** وتلخص الآية السابقة ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**﴾، قواعد وأساسات هذه الفكرة نجملها فيما يلي:

**أولا:** فكرة السواء في النفس الإنسانية ثابتة.

**ثانيا:** آلية الاستعداد في النفس للفجور أو التقوى، قائمة بمثابة مكون ثابت في هذا التكوين.

**ثالثا:** تزكية الإنسان لنفسه، فعل إنساني حر.

**رابعا:** تدسية النفس لا تكون إلا من الإنسان.

**خامسا:** التحكم وإدارة النفس تكون للإنسان.

**سادسا:** تتضح مسؤولية الإنسان في قيادة نفسه، وحياته بصورة واضحة.

وبهذا يتعين فهم عمل هذه الآليات وسرها، وكما يقول جودت سعيد: "لم يبق إلا أن يفهم وارث النبوة التركيبة الأولى فتعود سوية لا ترى فيها عوجا ولا أمتا".[12] والتركيبة الأولى هي تركيبة النفس الإنسانية وفق المراد الإلهي، وهذا هو المفتاح الذي به تتم معرفة النفس الإنسانية ونظامها والسنة المتحكمة فيها.

**3- ظلم النفس:** و يمكن توضيح هذه الفكرة من خلال آيات كثيرة منها :

1- قال تعالى: **﴿فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾**.[13]

2- وقال أيضا: **﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾**.[14]

3- وقال سبحانه: **﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾**.[15]

إن هذه الآيات وغيرها تثبت هذه الحقيقة، حقيقة ظلم الإنسان لنفسه، وقد رأينا في المبدأ الأول كيف أثبت الله خلقه للإنسان بهذه الكيفية وهي التسوية، وأثبت بالمقابل للإنسان التدسية والتزكية، فهو المسؤول المباشر عن كل تصرف يكون. وهذا المبدأ هو مبدأ تحريك لهذه القوة المودعة في الإنسان، "وظلم النفس ينم عن التمزق والضعف".[16] وهذا لا يمكن الإنسان من إخراج طاقاته إخراج خيرية بناءة، وظلم النفس إنما هو المرض الذي يحل بالنفس، وعليه، "فالظلم في القرآن هو ظلم النفس لا وضع الشيء في غير موضعه"،[17] فالإنسان بحكم هذا يجب أن يتساوق مع فكرة التكريم الإلهية له، وهذا بتكريم نفسه، وعدم ظلمها، "وهذا يكشف الغطاء عن أعظم آلية خلف العطب النفسي- الإجتماعي بأن العجز والخطأ هو داخلي بالدرجة الأولى".[18] هذا هو المرض القاتل للقدرات والطاقات، مرض ظلم الإنسان لنفسه، وإن معرفة هذه الحقيقة تعد فتحا كبيرا في فهم آليات عمل النفس الإنسانية، وإن وضع اليد على هذا المفتاح هو إيذان بفتح في

ساحة مغلقة، وساحة يتعين أن تشغل دفعا للنفس نحو عمل الخيرات، وتحقيقا لحالة السلام الداخلي خاصة، ومعرفة سرها والقبض على الكنز الثمين، الذي هو في داخل النفس، ومن ثم إمكانية تحقيق فتح في دنيا الحياة و المجتمع والكون.

**4- إدراك سننية النفس:** وتبرز الآيات التالية هذا القانون:

1- قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.[19]

2- وقال أيضا:﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.[20]

3- وقال سبحانه: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.[21]

4- وقال تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.[22]

5- وقال سبحانه: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾.[23]

تدفعنا هذه الآيات إلى ضرورة إدراك أن النفس تتحكم فيها قوانين علمية، وإن كل تشغيل لأجهزة النفس، إنما يعني ضبط بوصلة هذا العالم الإنساني العجيب، فعلينا إذن أن "نأخذ بعين الاعتبار ما أثبته الله للبشر من قدرة على تغيير ما بالأنفس وهذا الذي بالأنفس و تنتج عنه الأفعال، هو ما يخضع لسلطان البشر"،[24] فمعرفة هذا القانون هو وجه فهم كيفية عمل النفس الإنسانية، وعليه يمكن أن نستخلص من خلال هذه الآيات المثبتة لسننية النفس ما يلي:

- ضبط البوصلة (بوصلة النفس).
- علمية الفعل النفسي وموضوعيته.
- الإمكانية التوجيهية للنفس.
- تحقيق التناغم مع حقائق الوجود الأخرى.

وبهذا يتحدد دور الإنسان وحركته ملخصة في إتباع السنة= القانون، لأن: "مجال الإنسان يتمركز في الاستفادة من السنن الموضوعة "،[25] فهو مكلف بهذا المطلب والسير في هذا السبيل لتحصيل مراداته.

**5- ميكانيزم عمل الفكرة في النفس:** لا تقل أهمية الفكرة و تأثيرها في النفس، وعملها في إنتاج السلوك عن المبادئ التي ذكرت، لأن البحث في هذا يعني معرفة كيفية تشكل الأفكار انطلاقا من تفاعلات قائمة في الإنسان بين المادي/ العضوي، والنفسي، وأي خلل يحدث يؤدي إلى إفساد النظام و اتساقه: ذلك أن الوعي الإنساني إنما هو حالة من العلم الناضج في الداخل الإنساني، "فسلوك الإنسان وتصرفاته نتيجة لأفكاره".[26] فداخل ذلك المعمل/ المصنع الداخلي يتم كل شيء، "فالأفكار تمشي أولا إلى الوعي (باستثناء الأطفال والعوام، التي قد تمر الأفكار مباشرة إلى اللاوعي عندهم، كما في تشكل السلوك بالتقليد)، حتى إذا تخمرت، تشربها اللاوعي، وانفصلت عن الوعي فأصبحت في اللاوعي (خبرة) و(تحرر) الوعي لاستقبال أفكار جديدة، وهي في حالة سيالة متصلة، فإذا زاد ترسخ الأفكار في اللاوعي تشكلت (العواطف) فأفرزت (السلوك)، فالأخلاق في النهاية، هي المحصلة الأخيرة، والتعبير الصادق لعمق الأفكار، واتساعها ورسوخها في النفس".[27] وهذا إثبات دال على الآلية العملية التي تشتغل بها النفس في تشكيل السلوك و الأخلاق، على أن تتم مراقبة هذه الآلية بشكل صحيح سليم، وبطريقة فيها الجدة والنماء والمرونة، حتى يتحقق للنفس هيئة الاستعداد للقابليات التي ترسم صورة الحياة والحيوية للذات الإنسانية. ومن ثم مواجهة التقليد القاتل أو مرض الأبائية المهلك للإنسان، قال تعالى : **﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾**.[28] وبدلا من هذا ينبغي أن يتشكل في النفس الوعي والعلم، فالوعي بعلم النفوس هو الضامن لمنح الفرد إمكانية التصرف في حياته وتنظيم شأنه واختيار مبدأه من متعارضات تعرض عليه، "وما أكثر رغبات الإنسان التي لا يعلمها، ولكنها مع ذلك موجودة تدفعه وتؤثر في مجرى تفكيره".[29] وإن تلك المخبآت كثيرا ما تحمل هلاكا محتما لصاحبها، لأن الأمر كما رأينا يتم وفق سننية ثابتة، وإن هذا الوعي هو علم وليس ضربا من المصادفات، فالإنسان قد أوكل له أمر هذه القيادة- قيادة نفسة، وإن رعاية هذه القوى لتعمل كما يجب أن تعمل دون تضارب واختلال هي مسؤولية الإنسان صاحب هذه الإدارة، ولهذا فعندما يكون الإنسان مسؤولا وواعيا، يكون هذا دليله في الانتماء إلى نوعه، "وإذا كان وعي الذات هو أرفع أنواع الوعي، فإنه يمثل انقلابا نوعيا في تصور المشاكل وهندسة معالجتها".[30] ومن ثم يصبح الوعي علما، بل وينبغي أن يكون مركوزا في النفوس، وبهذا

فإن وضع يدنا على الآلية المتحكمة في عمل النفس وكشف هذا يعد هو الإنجاز الذي يمدنا بأدوات بناء الحياة الفردية، ومعرفة عالم الذات الإنسانية، ويمكن توضيح هذه المبادئ بالتخطيط والترسيمة الآتية:

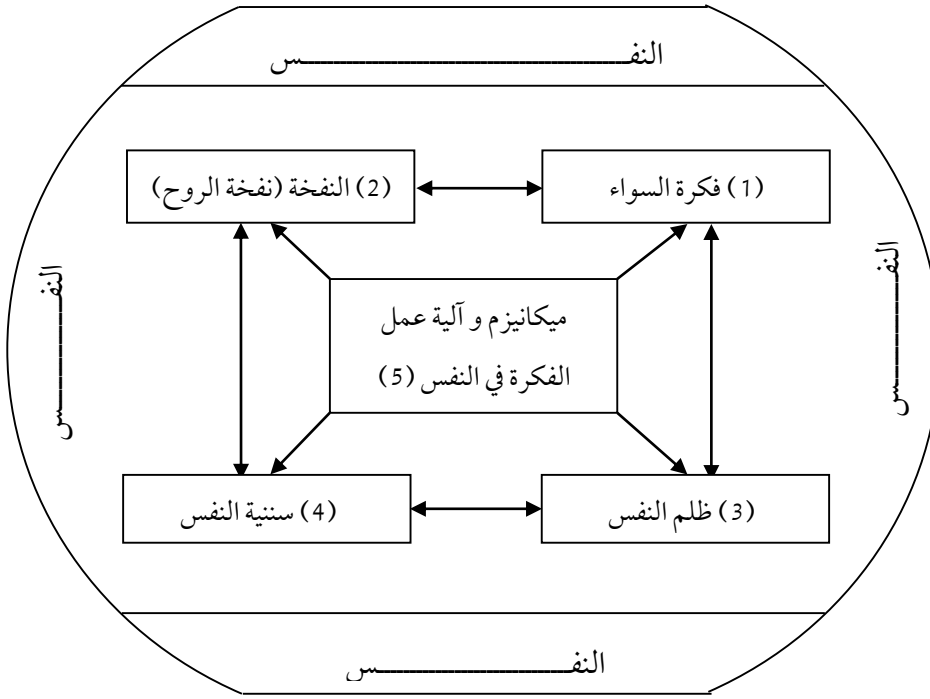


**ترسيمة المركبات العملية للنفس**

### 3- آلية عمل النفس وهيئة التكون:

رأينا في الصفحات السابقة المبادئ الخمسة واعتبرنا أنها أرضية مفتاحية لمعرفة هذا الكون النفسي البالغ الدقة، وأن ذلك التشكيل لصورة النفس الإنسانية وضع الإنسان أمام حتمية واحدة أن يكون هو المسؤول عن هذا العالم يصرفه بإرادته وبوعيه، ما دام أن المفاتيح التي بها يلج عالمه هذا هي عنده، وهذا ما تؤكده مفاتيح: **"قد افلح/ وقد خاب/ ولو ألقى معاذيره"**. وهي عنده بوابة قلعة يتعين عليه فك سرها، فيحقق من ورائها المعنى

الذي يتشكل في داخله ويعيشه بالأدوات التي يمتلك، ليكون قانون ذاته، وقد تشكل المعنى عنده بفضل الوعي، فهذه المزودات هي المنشئ للوعي، وأن الأمر لا يتم بتفسيرات غريزية، كما يرى فرويد وغيره، وبالتالي يعاد للكائن صفته النوعية، أنه الإنسان المكرم المقوم والمسؤول، ومن هنا يكتسب الوعي أهمية كبيرة في تشكيل السلوك الفردي، "فالوعي ضمن هذا التتابع هو المسؤول الأول والأخير عن كل تكوينات- الخطأ والصواب والخيبة والتردد والخجل- فهو الذي يجالس صاحبه ويتحدث إليه بواسطة الصور واللغة ويخلق في داخله- الذاكرة والخيال والمعرفة- هذا الإمكان القاصر يخلف وراءه سلوكا قاصرا"،[31] وهنا تتجلى عملية تشكيل الأفكار ونسجها سواء كانت في صورة حسن أو سوء، فإنها تعود إلى هذه العملية الواعية، وذلك التذهين الذي يتلقاه الفرد متتابعا في حياته من محيطه وبيئته من الأب والأم والمدرسة والكتاب..، في هذا المناخ تدار عملية الوعي، وتتوضح خطورة التذهين، وإن فهم أي فرد، وأي سلوك فيه، لا يتحقق إلا بهذا المدخل المؤسس للبناء النفسي، وهو الوعي، وبهذا نخرج الإنسان من أي فهم تمليه التفاسير غير الموضوعية والتي لا تستند إلى تأصيل علمي منضبط، "فإذا كان الفساد ظهر في الآفاق مما كسبت أيدي الناس، فإن الفساد سيظهر في الأنفس من إساءة التعامل معها، إن العالم كله يعيش مرض عدم التكيف مع الجهاز العصبي".[32] إن ربطا دقيقا بين المكونات العضوية، وآليات الرصد النفسي، الذي يترجم سلوكات وأفعالا ومشاعر وأحاسيس هو الذي يقودنا إلى كل معرفة، وإن عدم التكيف مع الجهاز العصبي يؤهل الذات إلى هيئة غير سوية هي حياة الفساد، وفساد الأنفس هو فساد العالم، لأن الشر وغيره منبعه الفرد، وأن هذا السلوك هو نتيجة التذهين المستمر من العهود الأولى للتربية، إن هذا التكون الحاصل صار برمجة يصعب تعديلها، فقد اكتسبت تلك الأفكار صفة الرسوخ والطبع، وهذا هو الخطر الذي يهدد حياة الفرد، ومن ثم تطرح الأسئلة المنهجية والضرورية التالية: كيف تشكل هذا الوعي؟ وما الذي يتعين تذهينه، وما الذي يفترض تجنبه؟ والأكبر من هذا من هم المعنيون بهذه العملية؟ وهل يمكن التحكم في إدارة هذه الوضعية؟ وهل هذا الأب مؤهل ليكون أبا؟ وهل هذه الأم مؤهلة هي الأخرى؟ وكذلك المؤسسات والأشخاص والهيئات الاعتبارية؟ وماذا عن النواقل المختلفة لأفكار

التاريخ التي بقيت ظلا ملازما للبشرية، وهي تحمل جراثيم الخطأ تسافر بها دون كلل؟! و بهذا فإن "الانفعال المذهن هو المعنى الذي أحمله معي من خلال ذهنية ال"ضد" أو "صح"، الذي أسسته لأعود لعيشه أمام أي تحريض يدفعه للظهور".[33] وإن مختلف المصبات يصعب التحكم فيها، وبهذا يكون الامتاح من الصفاء حتمية، وبالمقابل يكون مطلبا يعز أمام الإنسان إيجاده، ورغم هذا تبقى المسؤولية قائمة، والتحري في القصد وسيلة وغاية، لأن حفظ النفس هو مقصد للشريعة، وآلة للرياسة، بمعنى سياسة النفس وقيادها.

إن تربية متوازنة خالية من العنف والقهر والكذب والتدليس، والالتواء والتسويف والإبطاء والإخفاء والنفاق، وجميع حالات السوء الأخلاقي هي إحدى ضمانات التذهين المتوازن، بعيدا عن الاضطراب على الأقل في المرحلة الأولى من العمر، مرحلة البرمجة الذهنية، لأن التعديل بعدها يصبح صعبا، والتناقض سيِّدا، وبهذا تكون المعالم المحددة لحياة النفس الإنسانية، بفضل المعنى الذي يتحقق في النهاية قاعدة وسنة تتموج الذات الفردية في رحابها، لأن "الجوهر هو المعنى وليس الحقيقة، فجوهر الماء هو الإرواء، وليس التركيب الكيماوي للماء، وجوهر الإنسان هو معناه المعاش وليس التركيب العضوي له".[34] نعم المعنى هو ما يكونه كل فرد منا ولكل فرد معناه الذي يتمثله ويعيشه، ليغدو منطق حياته، وهذا هو الجوهر الحقيقي للنفس والحياة، حياة الذات، وهو الإرواء، كما الماء، فإرواء النفس هو معناها، فرصد هذا الجوهر والتقاطه يصبح حالة يتطلع إليها الكائن، ولكنه يحتاج في هذا إلى مفاتيح التقاط المعنى من الكون ومن الإنسان، بمعنى قدرته في الانفتاح والاقتناص، ولهذا نرى في حياتنا كثيرا من صور المعنى: من عدمية وعبثية، ومادية وروحية وعقلية...، فهل كل هذه الحالات استطاعت أن تجسد المعنى الذي يجعل السوية والتوازن في حياة الفرد؟! وهل امتلأت نفسه من الخواء والفراغ الذي ينهش الداخل الإنساني، الذي يجعل من الناس في أي لحظة حيوانات كاسرة ومفترسة؟! وحتى يتمكن الإنسان من تحصيل المعنى الذي يرغبه، فقد زوده الله بقوى داعمة وآلية لضبط صورته الإنسانية، بحيث جعل له خمس قوى لها تأثيرها البالغ في حياته وهي قوة الغذاء، وقوة الحس، وقوة التخيل، وقوة التروع، وقوة التفكر، وهي قوى يستقيم بها

الكيان الفردي، وتتم له بها هيئة وجوده وتحقيق إنسانيته، ولكن هذا يحصل بعد عملية تطهير النفس من مفاسد كامنة في ثلاثة قوى، التي هي مركبات ضرورية وأحجار البناء الثابتة في عالم النفس الإنسانية، وتتعلق بقوة الفكرة وقوة الشهوة وقوة الحمية، ولكل واحدة مترتب قائم، وفي إصلاحها يتحقق للنفس معاني العدالة والإحسان،[35] وهذا التطهير محصلة لمعاني مهمة، وضبط لحركة النفس، حتى تستطيع أن تستخلص معلم هداية سبيلها، وتدرك دلالة الحياة التي تسعى إليها، فالعدل ارتقاء وانتصار على كل المثبطات والمعيقات والإحسان هيئة كمالية تتأتى بعد فوز على كل عناصر البهيمية القابعة في النفس.

وإن هذا الإصلاح إذا أخذ به يرفع من النفس إلى أعلى المراتب، ويهيئ هذه الذات إلى تحصيل إنسانيتها من خلال ممارسة حياتية دالة على رمزية هذا الكائن، وهو كمال تسعى إليه بإدارة ذكية، وثبات سير وسلاسة قياد، وهذا وعي وعلم ينهجه صاحبه في عملية تحقيق المعنى في الحياة، وهذا المعنى هو مفارقة مبدئية بين عالم البهيمية وعالم الإنسانية، ليكون المعنى هو معنى النفس، التي تحركت في طريق كمالها، ومسعى حياتها لتعيش المعنى، بعد أن تهيأت له، إلى أفق الإنسانية، وهذا لا يكون إلا بعد أن تمتلك النفس استعدادا يهيئها لكي تنسلخ من البشرية إلى الملكية، وفي هذا تتصل بالبدن من أسفل لاكتساب المدارك الحسية والتعقلات ومن جهة العلو لاكتساب المدارك العلمية والغيبية، كما يرى ابن خلدون.[36] يثبت هذا الكلام جملة من الحقائق المتعلقة بالنفس الإنسانية، وعمل الذات في تحصيل مرتبة الكمال والمعنى النفسي المحقق لكل اطمئنان، كإجراء عملي سلوكي، وبهذا يتحقق استكمال الهيئة الحاصلة للنفس في نيل الكمال هذا أولا، والأمر الثاني يخرج النفس من الوقوع تحت سيطرة البهيمية، والبقاء تحت سلطان البدن، ويوضح الرسم التالي ما يعترض طريق النفس الإنسانية وعملها علوا وسفلا كمالا ونقصانا:

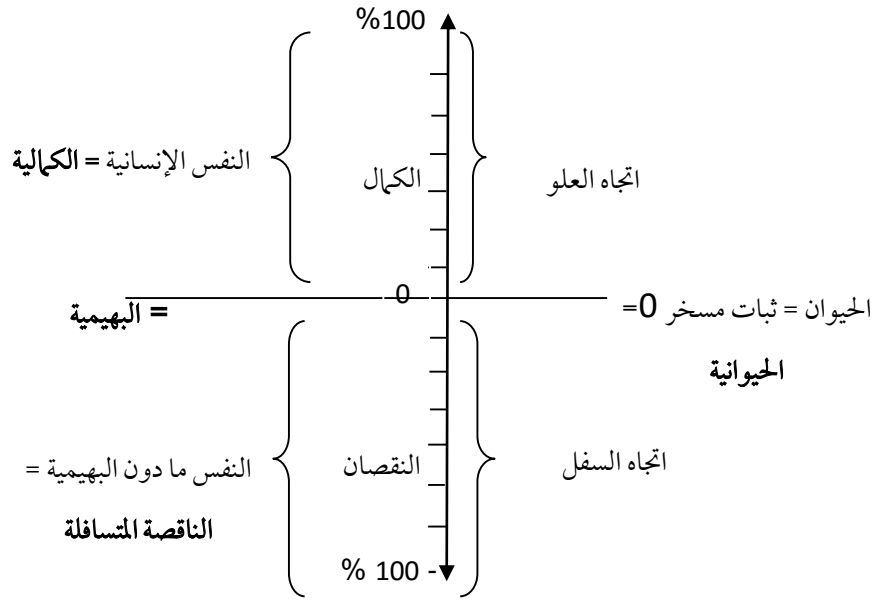


**مخطط كاشف لحالة الكمال والنقصان في النفس**

ولتوضيح هذا نستدل بالآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾،[37] حيث يتبين لنا أن كل خروج عن المنهج، وأن كل تذهين يضع كل ما هو سيئ بنية وتركيبا في النفس هو خروج عن إدراك كل كمال، ولهذا عد الله سبحانه هذا التسافل الحاصل حالة دون الأنعام: "أنهم كالأنعام" أولا من حيث النزول عن مرتبة الإنسانية، و"أضل" باعتبار ترك عالم الإنسانية والتعقل والانسلاخ عنه مع استحالة قبولهم في عالم الحيوانية الثابت وهذا ثانيا ، وعليه فإن السير في طريق الكمال واجب إنساني تفرضه هذه القيمة، ويفرضه التكريم، وتفرضه النعم التي زود بها الإنسان من عقل وغيره، ويفرضه شكر المنعم الموجد المتفضل على الإنسان، ثم نسب إليهم في الأخير الغفلة "أولئك هم الغافلون". هذا التوصيف يكشف عن ذلك الانهيار الرهيب للإنسان، ليصبح إنسانا خارج-كوني بعيدا عن كل السنن الفاعلة و من ثم فهم:

أ- كالأنعام = مشاركة.
ب- أضل من الأنعام = خروجا و انسلاخا.
ج- هم الغافلون = تعطيلا للآليات خاصة العقل.

وهذا ما يفترض أن الأنعام هي ثابتة، ومسخرة، لا نسبة بينها وبين الإنسان، ليخرج هذا المخلوق، أدنى منها بمخالفته وغفلته، وأن الغفلة عدو النفس، وهي ضد التذكر آلية المعرفة والسننية، وبمقدار تأثير الفكرة في النفوس يكون السلوك الإنساني المحصل.

إن العمل الذي ينتظر النفس لتقوى وتزكو وترتقي إلى كل أفق يرفع إلى الكمالات الروحية، وإلى تحصيل المعنى الذي يحقق هذه الرفعة في الحياة شاق، ومن ثم تكون هذه الحياة صورة نموذجية مثالية، هي حياة النفس الكريمة، وحياة النفس التي حققت إنسانيتها، وارتفعت إلى حالة من الانتظام والضبط وإتباع منهج سنني، وتكيفت مع وضعها الوجودي بكل ملابساته، أخذاً بالمبادئ المؤسسة لحركة النفس في صناعة الفعل والسلوك الخير، كما يجليها هذا المخطط:

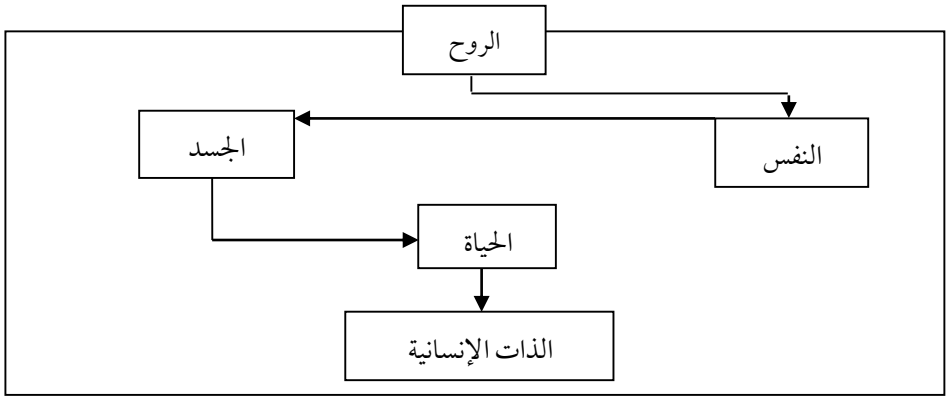


**مخطط يمثل كيفية تشكل وعمل النفس**

## ثانيا: أنواع الحياة النفسيّة:

تنشط النفس الإنسانية في مجالات متاحة لها وجودا وتحققا، من أجل إظهار قدرتها على امتلاك الحيوية لإدارة الطاقة الفكرية والروحية والجسدية التي تتمتع بها الذات، وتسعى إلى أن تحياها كاملة، فالحياة هي صورة الكائن ورمزيته، وإن لكل كائن تجسدا خاصا لمعناه.

والملاحظ من خلال هذا الرصد المتنوع للحياة، وجود حالة من الترقي في الحياة من الحس والحركة والروح إلى الكمال الذي يبلغه الإنسان، وهذا بالعمل والاجتهاد والمثابرة مع الاستمرار في هذا السعي حتى تترقى النفس في مدارج الكمال من صنف إلى آخر، وتنتقل نقلات سلسة طبيعية بعد كل تحقق وتمكن يتم لها مراد آخر، وهكذا في عملية دورية متزنة، وأنها حياة تشعب ونمو، وتطور وكمال، وهي بالنسبة للإنسان ليست ذات صورة وهيئة واحدة، وأن العاقل وقوي الإرادة يحيا حياته في تنوعها وفي تطورها من الحس إلى العقل إلى الروح..

### 1ـ الحياة الجسديّة أو حياة الجسد:

لا يمكن الفصل بين حياة النفس والجسد، وجعل هذه مستقلة عن الأخرى، لأن الارتباط القائم بين ما هو نفسي وعضوي، تثبته أدلة كثيرة، وكما رأينا في التعريف فإن النفس هي من يمنح الحياة للجسد، ولا قيمة ولا اعتبار له من غيرها، هذا الجسد الوعاء حامل لمعنى، حامل لرمزية اعتبارية، مقدسة وجليلة، لأنه تنفيذ آلي لفكرة مستنبتة في النفس، وتحويل لأمداد من الطاقة تجود بها عليه، ليكون دليلا قائما على غائب حاضر. وقد جاء في تحديدات هذه الكلمة، أن الجسد: "جسم الإنسان.، والجسد البدن.."،[38] وهذا المعنى يؤكد على الهيئة الخارجية للإنسان بمختلف الأعضاء التي تكونه، وفي المقاييس: "الجيم والسين والميم يدل على تجمع الشيء فالجسم كل شخص مدرك..."،[39] ونفس الأمر ينطبق على الجسد: "فالجيم والسين والدال يدل على تجمع الشيء أيضا واشتداده، من ذلك جسد الإنسان.."،[40] وعليه فإن الجسم والجسد هو الدلالة على اجتماع هذه الأعضاء، وهي ما يشكل هذا الكائن وصورته، مع اشتداد هذه الأعضاء والمركبات في

ارتباطها القوي، حتى تعمل متكافئة في بناء معالم الحياة التي تقوم بها مختلف الأعضاء، أما صاحب التعريفات، فإنه يعطي عمقا لهذا المدلول، فالجسد عنده هو "كل روح تمثل بتصرف الخيال المنفصل، وظهر في جسم ناري كالجن أو نوري كالأرواح الملكية والإنسانية، حيث تعطي قوتهم الذاتية الخلع واللبس فلا يحصرهم حبس البرازخ"،[41] وأما الجسم فهو: "جوهر قابل للأبعاد الثلاثة، وقيل الجسم هو المركب المؤلف من الجوهر"،[42] هذا التعريف يعطي مدلولات حيوية للجسد بوصفه روحا أولا، وبما فيه من تصرف ثانيا بجسده الخيال، مع القوة التي تمنح للذات فيصبح هذا الجسد بعيدا عن الحصر والحبس، أي أن معنى الحياة والحركة والقدرة والنشاط والفعل تصبح مظاهر حالة في هذا الجسد يعبر عنها بأشكال وأساليب مختلفة، هي تمظهرات للحياة الجسدية.

إن حياة الجسد كما يراها الإمام علي (40هـ) هي حياة فعل، وهي حياة في خدمة النفس، حيث يقول: "... وخذوا من أجسادكم فجودوا بها على أنفسكم، ولا تبخلوا بها عنها، فقد قال الله سبحانه: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ وقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[43] وهذه دعوة إلى تفعيل دور الجسد وجعله كيانا وظيفيا، ولكنه يكسب برأي الإمام معنى، وهذا يعد قيمة عالية، عندما يكون الجسد بقيمة الجود والكرم، والحياة، وهذا بالسعي في فكاك الرقاب، ففك الرقاب يبرز ارتباط الجسد بحالة الفكاك، أي بمصيره، لذا حث على مجموعة من السلوكات في هذا المجال:[44]

1 – اسهروا عيونكم

2 – اضمروا بطونكم

3 – استعملوا أقدامكم

4 – أنفقوا أموالكم

تأكيدا على ← استعمال الجوارح = الجسد في الطاعة، و هذا بمثابة التسخير الآلي الوظيفي للطاقة، في الخيرية.

منطلقات لأعمال الجسد ← نحو ← حالة حياة

**مخطط يوضح كرامة الجسد ودوره**

وعليه فإن أخذ الجسد على هذا هو إنفاق وعمل يجعل من حياة الجسد حياة للنفس، وكرم الجسد يصبح كرما و تكريما لها، "فالروح و الجسد في القرآن الكريم ملاك الذات الإنسانية، تتم بهما الحياة ولا تنكر أحدهما في سبيل الآخر، فلا يجوز للمؤمن بالكتاب أن يبخس للجسد حقا ليوفى حقوق الروح، ولا يجوز له أن يبخس للروح حقا ليوفى حقوق الجسد"،[45] من هنا يصبح الجسد طاقة حيوية، أداة حياة، ودابة تنشط وتمارس فعلها، وهذا هو الأصل فيه، أي الأداء الفاعل، وكأن الإمام يرسم لنا مفهوما عمليا للجسد، لذا نجده يقول في هذا السياق: "ولو كانت الأنبياء أهل قوة لا ترام وعزة لا تضام..، لكان ذلك أهون في الإعتبار".[46] فهذا الجرم الصغير الذي عليه الإنسان له غاية، وهو آية كذلك، لذا كان انتفاء القوة والمنعة في جانب الأنبياء عليهم السلام، لفقدان الاعتبار، والاعتبار يكون في المعنى المنبعث من هذا الجسد الإنساني، وما قصة سيدنا أيوب عليه السلام، إلا دليلا يؤكد هذا المعنى فمرضه واعتلال جسمه لمدة طويلة لم يمنعه من أن يكون حيا بهذا الجسد- العليل- حيا بالمعنى الذي كان عليه : إنها قوة الصبر والتحمل والعزم، ما قاده ليكون عابدا في وضعه، فكان تحريكه لهذا الجسد ودفعه إلى النشاط هو فعاليته، ومن ثم فهو آلة وطاقة لتحقيق الغاية المثلى من الوجود، أن يكون خليفة الله في أرضه و عابدا لربه. وفي مثل هذا المعنى يخاطب الإمام الإنسان في مثل هذا الوضع المتقدم للجسد عندما يبلغ به العمر عتيا، حتى يبقى عاملا ناشطا صانعا للحياة: "أيها اليفن الكبير الذي لهزه القتير كيف أنت إذا التحمت أطواق النار بعظام الأعناق ونشبت الجوامع حتى أكلت السواعد".[47] ترهيب يحفزه، ويرفع همة هذا الكبير ليحيا لحظاته- المتاح من العمر، ويشرك جسده وهو في مثل هذا الوضع في النشاط، أي يدخله في حياة العبادة والصلاح وقاية من النار، ومنه فالجسد عند الكبر وتقدم السن يتعين أن يبقى قائما بأداء الوظائف الموكلة إليه.

يرسل الإمام تنبيهات كثيرة ، لدفع الناس إلى أهمية تفعيل دور الجسد إشارته إلى قضية صحة الجسد قائلا: "فالله الله معشر العباد وأنتم سالمون في الصحة قبل السقم، وفي الفسحة قبل الضيق".[48] وهنا تصبح صحة الجسد من ضرورات الحياة، على اعتبار أنها:

1- أهلية أولا.

2 – إمكانية توظيفية ثانيا.

3 – طاقة ثالثا.

ومن هنا يكون واجبا ضروريا اتخاذ قوة الجسد وصحته دعما للفرد في تجسيد حياته وإنمائها وصناعتها دون فوت يكون ندما، ولأهمية هذه الصحة نجد الإمام بحكمته يقول أن هذه الصحة مرهونة بقلة الحسد، فقال: "صحة الجسد من قلة الحسد"،[49] لأن الحسد ملتهم للنعم مبدد للطاقات، لذا يتعين الحذر من كل حاسد، حتى نتعافى من هذا الخطر المدمر لحياة هذا الجسد ويبقى في حالة من الاشتغال مؤديا ما ينتظره في دنياه، وإبقاء لدوره قائما في حالة عمل، ينشط فيه الجسد الإنساني في كل مراحل عمره، كما يترقى هذا الجسد إلى الأمثل والأكمل، ليكون فعله وسلوكه دالا على عظمة هذا الجسد "فليس بوسع الإنسان أن يكون موجودا بدون جسده"،[50] فالجسد علامة وجود الفرد، وللجسد مطالبه التي يثبت بها هذا الوجود أصالة، ولكن هذا الجسد ليس اندفاعة نحو مجهول، وسير تيه يخلو من كل قصد، وإنما الجسد فكرة مؤسسة يرتكز عليها، وهذا ما يبرزه الإمام بقوله: "ولا خير في جسد لا رأس معه".[51] وكأن قيادة حكيمة تكون وراء هذا ضرورة، يكون الهدف منها إبراز حكمة الجسد وكرمه، ومن ثم يكون لزاما على الفرد "أن يسيطر على ذلك العالم الحسي ذي القيم الحسية، كي يمضي قدما ليصل إلى الجوانية"،[52] فلا تفلت يكون، وإنما نرى سياسة ذكية من الإنسان لجسده والطاقات المودعة فيه، وهذا مقصد له ما وراءه، وجهد له مطالب تثبت نبل هذا الفعل وقصديته، "فالجسد رسالة الروح إلى الباديات"،[53] فهذا ظاهر يتبدى، ولكنه كشف لعمق فكرة تعمل إجلاء لسوية الإنسان.

ويواصل الإمام في منح الإنسان إضاءات هذا الطريق طريق حياة الجسد وضرورته، لأنه آلة اشتغال وطاقة مقلقة محفزة تتطلب ضبطا دائما، فيشير إلى آلية تحكم سحرية ناجعة في جعل الجسد حركة زاكية قائلا: "وزكاة البدن الصيام"،[54] وهذا معناه ترويض وتطهير وتزكية عملية منجحة، ارتقاء بالبدن إلى حالة من الكمال والأهلية، التي تمكنه من استقبال الفكرة بشكل مريح، وتحويلها إلى أسلوب يُرى، أسلوب الحياة الجسدية الملحقة بفكرة التكريم والسواء، وإن هذا العمل النشط للجسد يعد طاقة هائلة متفجرة، هي إثبات دال

على حيوية الكائن وتطلعه ليرتاد المعالي في الحياة، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم في توجيهه للشباب الذي أقعدته الباءة، عن الزواج إلى الصيام، لأنه له وجاء،* والمستخلص من هذا هو ترويض الجسد، وترويض الطاقة الشهوية المستعرة في النفوس حتى تهدأ، ومن ثم توجيه هذه الطاقة توجيها سليما يصرف في التقوية والمنعة والتزكية والتدرج الكمالي للجسد، هذا الجسد الذي قاد الصالحين والأذكياء إلى تلك الخيرية المنقطعة النظير في كل باب من أبواب الحياة الواسعة، ومقتضياتها حتى تقام استنادا إلى مبدأ العمارة والاستخلاف، قال تعالى حكاية عن طالوت: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾،[55] وبه، أي الجسم تحقق لطالوت النصر وتغير الحال واندحر الظلم، ولكن عندما كان لهذا الجسم آلة القيادة، أي معه رأس بتعبير الإمام، وهو هنا العلم والفكر.

ثم يعطف الإمام في حديثه عن الطبيعة الإنسانية للفرد، حيث يتطرق إلى تكوينية النفس البشرية من خلال تركيبها العضوي، وعناصر هذا التركيب وهو الطين وتقارب النفوس وتباينها وفقا لهذا المكون فقال: "إنما فرق بينهم مبادئ طينهم، وذلك أنهم كانوا فلقة من سبخ أرض وعذبها، وحزن تربة وسهلها، فهم على حسب قرب أرضهم يتقاربون وعلى قدر اختلافها يتفاوتون"،[56] وهذا تحليل عضوي لطبيعة الجسد وتكوينه، ولهذه الخلقة والنشأة، ومبادئ طينهم، هي رمز لهذا الجسد وتشكله، "وهي عناصر تركيبهم"،[57] المشكلة لتمازجهم واختلافهم في الطبيعة وهذا ما تظهره نفوسهم المختلفة، ومن ثم "فتقارب الناس حسب تقارب العناصر المؤلفة لبناهم وكذلك تباعدهم بتباعدها"،[58] وهذا امتزاج واختلاط للمكونات الجسدية = الطين، مما يجعل نفوس الناس تتشابه وفقا لهذا الاعتبار، من حيث الكم وما ينعكس على ساكني بقعة أرض ما وهذا تقارب، ومن حيث النوع في إعطاء تنوع سلوكي مختلف وفي هذا تفاوت،[59] أما "ابن أبي الحديد"(655هـ) فيرى أن هذا يقصد به اختلاف النفوس المدبرة للأبدان، واختلاف أخلاق هذه النفوس من زكية إلى خبيثة، وعفيفة وفاجرة.[60] وعليه فنحن أمام تشاكل عام وتماثل جسدي، واختلاف في النفوس، وهذا ما يجعل من الاختلاف مؤشرا وعلامة تثبت خصوصية قائمة صانعة للتفاوت، إلى سلوك الكمال النفسي، ومقاربة الكاملين، فريضة سننية لدفع هذا الجسد إلى البحث عن مكملات وتحسينات ضرورية. ويضيف الإمام

تحديدات أخرى أكثر تفصيلا مما أجمله سابقا حيث يقول: "...فتام الرواء، ناقص العقل، وماد القامة قصير الهمة، وزاكي العمل قبيح المنظر، وقريب القعر بعيد السير، ومعروف الضريبة منكر الجليبة، وتائه القلب متفرق اللب، وطليق اللسان حديد الجنان".[61] ونرى هنا كيف يتأسس المعطى النفسي على الشكل والتركيب الجسدي، بمعنى أن كل صفة جسدية تقابل بمعنى ما، فتام الرواء، صاحب المنظر الجميل فهو ناقص عقل، وماد القامة قصير الهمة، "وهذا يعني أن من كان على هذه الشاكلة قد استغنى بشكله دون المضمون"،[62] ويفترض في الإنسان ومن كان على هذه الشاكلة ألا يقف عند حدود جسده معجبا أو مغفلا لمعناه، وإنما عليه استكمال مقومات البناء الجسدي والنفسي وهذا هو الأهم، وقد ذكر القرآن أن الإنسان خلق خلقة أمشاج للاختبار، حيث قال تعالى: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ**﴾.[63] هذه الأخلاط هي آية تفعل عمليا في واقع الحياة، وكل إعجاب مذموم في عرف القرآن، بحيث فضل في الزواج الإيمان على الجمال الجسدي المحقق للإعجاب،* وهذا مبدأ القرآن الذي لا يقف عند حدود هذا البناء، وإنما يدفع الناس إلى البحث عن معنى الحياة التي يمكن للفرد أن يستظهرها جسده، وهذا ما ذكره الإمام في تصنيفه: أن قبيح المنظر زاكي العمل، أي حسنها وصوابها، وكذلك في قريب القعر بعيد السير، ومعناه "قعر البدن، أي أنه قصير الجسم، لكنه داهي الفؤاد"،[64] بحيث يظهر من الخفايا ما يبهر به وتبقى أسراره عميقة في باطنه لا تدرك، وصنف آخر هو ذلك الذي يتكلف سلوكه على غير طبيعته، أي "ما يتصنعه الإنسان على خلاف طبعه".[65] وهذا مرض ينبغي علاجه من الأصل إفراغا ثم ملأ فكرة بفكرة، ونرى أن تائه القلب متفرق اللب، يظهر تلاؤما في سلوكه، فلا يمكن أن تعمل النفس الإنسانية، وهي مضطربة القوى مختلفة، ثم الوصف الأخير المتعلق بطليق اللسان حديد الجنان، وهذا صفة حسنة متناسبة، كل هذا تأويل من الإمام من خلال تصنيفه هذا ينبئ عن معرفة وتأمل وقدرة في كشف البواطن والسلوك بقراءة جسدية تأويلية، ودقتها كانت في "الضدية القائمة بين الشكل والمضمون"،[66] فكل صفة تصنع معنى ومغايرة دالة، ولكن يبقى هذا التصنيف عاما قد نجد في واقع الحياة ما يخالفه، وعليه يمكن أن نستخلص بعض الأفكار التأسيسية استنادا إلى هذا التأويل:

1 – أن هذه الحقائق هي نظر في الطبائع، وفيها ما يثبته العلم اليوم، فهذا تأويل مبني على استقراء وعلم وبصيرة، هو حصر للطبائع وتشكيلاتها في محددات، بصورة مطلقة وعامة قد يشذ فيها الكثير.

2 – يتعين ضرورة استكمال كل نقص يظهر في الأجساد بمواجهة قائمة على الجهاد المستمر والعمل المتواصل.

3 – الجسد يصنع معناه.

4 – نلاحظ التفاعل الحاصل بين الجسد والنفس، فالجسد ماد للنفس بالطاقة والقدرة، والنفس مانحة الحياة لهذا الجسد.

5 – حياة الجسد قائمة ثابتة لا يمكن إهمالها أو إنكارها، وهي تحتاج إلى رياضة وتزكية وسهر دائم.

6 – للجسد كرم وجود، تنتفع به النفس وتعود ثمرته إليها.

تدخل الحياة الجسدية في محاولة تأويلية ترتبط بالوجود الإنساني، ذلك أن الجسد تمظهر يتزيا و يتبدى بحقائق ومعاني ورموز دالة قد تحير الناظر، وهو كاشف عن كينونة الإنسان وذاته. ومن ثم "فإن الذات المفكرة ينبغي أن تؤسس على الذات المتجسدة"،[67] فالجسد دال قابل للتأويل، ومن ثم دال يحمل الحياة، ويكون الجسد طريق النفس إلى كل إثبات حي، "فالجسد هو إحدى الوسائل الأكثر أهمية التي تعبر بها الذات عن تخارجها".[68] فالحياة الجسدية هي الإمكانية القائمة في الوجود، ترجمة للطاقة المختزنة لتكون دليل الكائن إلى عالم يثبته ويطلبه، ويتمثله تحققا ليقبض على بعض أسراره، وعليه فالجسد هو سر الإنسان.

### 2ـ الحياة النفسيّة (الذاتية):

يرى علماء النفس أن الإنسان يولد صفحة بيضاء، تكتب وتملأ بعد ذلك، ومعلوم أن الورقة عندما تكتب يستحيل فيها المحو والإضافة، وهذا التوصيف فيه علمية وصحة، ذلك أن التذهين الذي يتعرض له الفرد يصعب تعديله بعد أن تم رسوخه، هذه الحقيقة يقدم لنا عنها الإمام علي رضي الله عنه معنى رائعا ودقيقا فيه تميز وإضافة، عندما يشبه

نفس الحدث بالأرض، بعد أن بين سبب نصحه لابنه فيقول: ".. أو يسبقني إليك بعض غلبات الهوى أو فتن الدنيا كالصعب النفور، وإنما قلب الحدث كالأرض الخالية ما ألقي فيها من شيء قبلته"،[69] وبهذا يتضح أن أمر استصلاح النفس يبدأ في الصغر، ومن ثم تحدد حياة النفس في المربع الأول من العمر، وتشبيه القلب بالأرض الخالية، إنما يؤكد على أهمية الزراعة الدائمة والمستمرة، لأن القابليات متجددة ودائمة العرض، وهنا يغرس المعنى في النفس الإنسانية لتكون صورة الحياة هي المعنى المثمر لهذا الداخل الإنساني ينمو بكيفية متزنة، وهذا ما يؤكده الإمام على مدار النهج على القيم والأخلاق والمبادئ التي تجعل من هذه الحياة متماثلة مع البعد الإنساني والروحي، فتكون سلوكا وفعلا شريفا يدل على تكريم، وإن محصلة هذا هو إدراك أمر النفس في أولها، كما بينه الإمام في أول كلامه: "لكيلا يسبقني بالاستيلاء على قلبك غلبات الأهواء، فلا تتمكن نصيحتي من النفوذ إلى فؤادك فتكون كالفرس الصعب غير المذلل".[70] وهذا يعني أن ترك أمر النفس بدون رياضة، يفتح مجال الأهواء لتكون الغالبة المستولية، وحتى يثبت في نفسه صورة حياة الإيمان والعبادة وعمارة الأرض بالصالحات، كخليفة لله في أرضه، فاللوحة البيضاء في الذهن يفترض أن تخلو من كل خلل، "فأنا في لوحتي البيضاء دون معالم تؤكدني وتحددني..".[71] وإن ما يتوجب على الفرد فعله هو كيف تبقى هذه الصفحة البيضاء أو الأرض الخالية أو اللوحة البيضاء ناصعة، وهذا بمراعاة أمر التذهين والتشكيل النفسي للمعالم والمحددات الأولى، التي تكون هي صور الحياة القادمة؟!.

إن النماء الحقيقي لحياة النفس، وظهور الحقائق فيها، وتجسيد المعنى في وجودها، إنما يكون في مهد الأمر، لأن القلب الذي يقبل الحقائق، لن يقبلها في مرحلة تالية بعد تذهين فاسد حيث يصعب تعديله، وهو الأمر الذي أوضحه الإمام بقوله: "فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك، ويشتغل لبك، لتستقبل بجد رأيك من الأمر ما قد كفاك أهل التجارب بغيته وتجربته، فتكون قد كفيت مؤونة الطلب، وعوفيت من علاج التجربة، فأتاك من ذلك ما قد كنا نأتيه، واستبان لك ما ربما أظلم علينا منه"،[72] فقبل أن تنغلق مفاتيح النظام المشكل للنفس وأدواته الفاعلة فيه، القلب والعقل، ينبغي أن يكون الترويض الذي يحدث الانفتاح، ترويض من قسوة القلب وانشغال اللب، وهي التربة

الثرة لحياة القلوب والنفوس، وهذا يستلزم استعدادا ثابتا، "لقبول الحقائق التي وقف عليها أهل التجارب وكفوك طلبها".[73] وإن المترتب على هذه القاعدة الجليلة في التربية والتهيئة النفسية للحياة، إنما هو منح إمكانية التجديد، والخروج من أسر التقليد بعد بناء الفكرة في النفس وتأصيلها، "فربما يظهر له مالم يكن ظهر لهم، فإن رأيه يأتي بأمر جديد لم يكونوا أتوا به"،[74] وهذا المعنى تحفيز حقيقي لتسلك النفس سبل وطرق الكمال، فقد يحقق الولد في حياته كمالا لم يكن لوالده، وهذا الأمر يقل به "نيتشه" في الصورة المثال المترتبة عن الزواج كناتج له، فيصبح الإبن صورة نموذجية كمالية عن حالة والديه، "فما الزواج في عرفي إلا اتحاد إرادتين لإيجاد فرد يفوق من كانا علة وجوده"،[75] وهذا ما يؤكد حياة ذات الزوجين من خلال الإرادة، كعمل فيه المثابرة والسعي، وهذا وجه وصورة لحياة النفس يكشف عنها الإمام، وعليه فحياة النفس إذن هي حياة الحيوية والتدفق وتفجر المعرفة، إنه المعنى ينطلق في حياة الفرد ناميا، هذه صورة يجليها الإمام للذات الحية الفاعلة، وعليه "فليس الإنسان صحيفة بيضاء من الورق يمكن للثقافة أن تكتب عليها نصها، إنه كيان مشحون بالطاقة، ومبني بطرق معينة، ويمكن التحقق منها "،[76] لذا نحتاج إلى فهم الذات، لنفهم كيفية تصرفها نظرا لتعقد أحوالها، وتعدد ملابساتها.

ويؤكد هذه المخاطر الملتبسة قول الإمام: "... فإن هذه النفس أبعد شيء منزعا، وإنها لا تزال تنزع إلى معصية"،[77] قول فيه تدقيق لهذا العالم الجواني/ الداخلي، عالم النفس الإنسانية، ففي هذا الداخل نجد تدافعا قائما، وحركة مائجة غير مستقرة على هدى بين، لذا وصفها بأنها أبعد شيء منزعا، "بمعنى الانتهاء والكف عن المعاصي"،[78] وبمعنى آخر "مذهباً"[79] تسلكه، وهذا كشف من الإمام لحقيقة النفس، وهو ما أسماه القرآن بظلم النفس، وهو علم نفس قائم يبحث في حقيقة هذا العالم التكويني، ومن ثم فإن الحياة النفسية هي قيادة النفس أولا، وحياة الفكرة النيرة فيها ثانيا، وهذا بهدف معالجة أمر النفس من حيث الامتثال والانقياد وعدمه، ولهذا قال الإمام: "واعلموا أنه ما من طاعة الله شيء إلا يأتي في كره، وما من معصية الله شيء إلا يأتي في شهوة، فرحم الله رجلا نزع عن شهوته، وقمع هوى نفسه".[80] وإذن فلكي يتحقق قياد النفس، يتعين على الإنسان أن يبعدها عن كل نزوع واشتياق يكون منها إلى الشهوة، وهنا تسلك النفس طريق الكمال،

وطريق السواء، وهو طريق محفوف بالمكاره، وهذه هي ضريبته، ومن ثم فهو عمل وبناء ولبنة تأسيسية لإنسان مكرم صافٍ عرف معدنه، وأقبل على تصفيته من كل الشوائب فيصبح أعذب، وهذه هي الحياة، وبالمقابل المعصية، والانغماس في الشهوة، وهذا هو الدرك وطريق التسافل والانحدار، وهذه هي حياة الكدر. لأنه "لاشيء من طاعة الله إلا وفيه مخالفة لهوى النفس البهيمية فتكره إتيانه، ولا شيء من معصية الله إلا وهو موافق لميل حيواني فتشتهي النفوس من إتيانه".[81] وهنا ندرك أن هذه المغالبة للنفس البهيمية ولكل ميل حيواني إنما يقصد به الحياة الفاضلة للنفس، التي تنطلق من مبدأ الفكرة الحية، هذا هو طريق الحياة، طريق شاق، وفيه تكون النفس في عسر من أمرها حتى تتخذ نهجا يقودها إلى رفعة وعزة وكرامة.

وما دام أمر النفس هو هكذا، فإن الإمام يضع في عقل كل إنسان الجملة الذهبية المحفزة المنبهة: "إن المؤمن لايصبح ولا يمسي إلا ونفسه ظنون عنده، فلا يزال زاريا عليها، ومستزيدا لها"،[82] أي أن يظن في نفسه النقص والتقصير في الطاعة، ومن ثم لا يثق بنفسه عند وسوستها، ويكون في حذر منها، وعليه ينبغي أن يكون "غير قاطع على صلاحها وسلامة عاقبتها".[83] وهذه القوة الداخلية إن كانت اقتناعا، تكون خلاصا، وسبيلا قائدا إلى صناعة الحياة، ومن ثم، فالعلاج الموضوعي لهذه النفس يكون بالعتاب لها، والاستزادة من الأعمال الصالحة، وهذا ما نوضحه بهذا التخطيط:

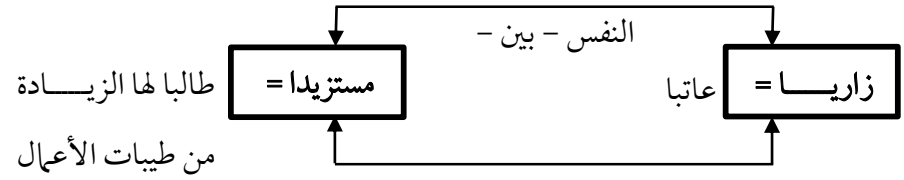


**حقيقة التعامل مع النفس**

إن هذا هو الأسلوب العلاجي الأصلح، ويتم بآلية عملية فعالة، وبيانها هذه المعادلة: **بالعتاب + الاستزادة من طيب الأعمال**. وفي ضوء هذا الاسترشاد يرسم الإمام مرتكزات تتحرك فيها النفس لصناعة حياة للذات تكون دليلا هاما في إعداد صورتها

المثلى ومعناها الحي، وهذا ما يوضحه بقوله: "طوبى لمن ذل في نفسه وطاب كسبه، وصلحت سريرته وحسنت خليقته وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من لسانه وعزل عن الناس شره ووسعته السنة ولم ينسب إلى البدعة".[84] إن هذه المعالم إذا وضعت منهج حياة يهتدي بها الإنسان، وتترسخ في النفس، فإن الفلاح يكون هو الثمرة التي تكتسبها الذات الفردية، وعند تفكيك القول نلاحظ أنه يركز على خمسة محاور مهمة، نوضحها من خلال الجدول الآتي:

| | الجمل الدّالة | المحاور | تأويل الحالة |
|---|---|---|---|
| 1 | - إخضاع النّفس.<br>- صلاح السريرة.<br>- حسن الخليقة. | إصلاح النّفس وهذا امتلاك لها. | القيادة : قيادة النفس وهي حكمة النفس. |
| 2 | - طيب الكسب. | الكسب الحلال قائد الصّلاح.. | أكل الحلال: العمل الصالح مرتبط بأكل الحلال.. |
| 3 | - انفق الفضل من ماله.<br>- امسك الفضل من لسانه. | الاقتصاد في المال واللسان..<br>(ضبط وابتعاد عن المشوشات) | الاقتصاد هو الخفة العملية لنمو الحياة الخيرة في النفس. |
| 4 | - عزل عن النّاس شره. | ظهور سواء النّفس. | ناتج هذا تحقيق التوازن الأخلاقي.. |
| 5 | - وسعته السنة.<br>- لم ينسب إلى البدعة. | اتّباع المنهج... | السير وفق الهاديات سبيل الوصول إلى حياة حقة. |

إن النفس التي تستطيع تمثل هذا المعنى الكبير، هي نفس توجد في قلب الحياة، بل هي الحياة، فهذه المحاور عند تأملها نجدها تنصب في مبدأ رفيع، هو مبدأ الصلاح العام، صلاح النفس، وصلاح المأكل، وصلاح اليد واللسان، وإصلاح القوة العدوانية وصلاح

المنهج، لأن "القدرة على الامتناع عظمة نفسية لا يبلغها إلا قليل من الناس"،[85] وهذه المحاولة هي مقاربة من معنى الحياة الحقة تلزم الجميع بتحصيل قيمتها، كما أن تثبيت المعنى الأخلاقي في النفس هام جدا، وهذا بفضل هذه المراقبة، التي ستحدد خصال الذات، مما يدل دلالة قطعية أن إدراك الحقيقة، والبحث المتواصل عن عيش المعنى، وترسيخ قيم الخير والجمال والفضيلة مبدأ النفس الزكية، النفس السوية، ومن ثم تحرك الذات في مثل هذه المرادات، التي تجعل من حياة الفرد قيمة رمزية دالة على جوهر إنساني وكرامة، وهذا هو الانفتاح الحقيقي الذي تبديه الذات أمام الحقائق القائمة، ومن ثم التعمق في المعنى والكلية الحياتية، ويمكن تركيز الأفكار التي تجعل من الحياة النفسية دالة على هذا الجوهر التكريمي، وإنسانية الإنسان، وكذا أهمية قيادة النفس وتوجيهها ودفعها نحو تحقيق هذه التمثلات الرمزية في مجموعة من الإضاءات الهادية تستخلص من توجيهات أخرى نعثر عليها في النهج ومنها:

| المجموعة | الفكرة | الجمل الدّالة | تأويلات ودلالة نفسيّة |
|---|---|---|---|
| الأولى | الاهتمام بأمر النفس | 1- "ولا يلم لائم إلا نفسه، ولا يحمد حامد إلا ربه".(1) | 1- لوم النفس نجاة، و حمد الله عبادة. |
| | | 2- "إن أبغض الخلائق إلى الله رجلان: رجل وكله الله إلى نفسه...".(2) | 2- إصلاح النفس ضرورة. |
| | | 3- "وأكرم نفسك من كل دنية.....".(3) | 3- إكرام النفس. |
| | | 4- "فاستتروا ببيوتكم وأصلحوا ذات بينكم".(4) | 4- أهمية البيت سكن النفس في تحقيق جماعها ومراقبتها وإصلاح أمر العلاقات. |
| | | 5- "إذا هبت أمرا فقع فيه، فإن شدة توخيه أعظم مما تخاف منه".(5) | 5- الجرأة والثقة هي دليل النفس الحية المتحركة. |

| | | | |
|---|---|---|---|
| الثانية | النفس والناس | 1- "لا يزيدني كثرة الناس عزة ولا تفرقهم عني وحشة".[1]<br>2- "ولا تكن عبد غيرك، وقد جعلك الله حرا".[2]<br>3- "فلا يغرنك سواد الناس من نفسك".[3] | 1- بناء النفس وقيادتها أمر ذاتي (حياة ذاتية)<br>2-3- التحرر من تأثير الآخرين وسلطتهم (سلبا أو إيجابا مدحا أو قدحا). |
| الثالثة | صفات النفس وحياتها | 1- "إن لم تكن حليما فتحلم".[1] | 1- أخلاق النفس آلية تمظهرها. |
| | | 2-"الجود حارس الأعراض، والحلم فدام السفيهِ، والعضو زكاة، والظفر والسلو عوضك ممن غدر، والاستشارة عين الهداية، وقد خاطر من استغنى برأيه، والصبر يناضل الحدثان، والجزع من أعوان الزمان، وأشرف الغنى ترك المنى، وكم من عقل أسير تحت هوى أمير، ومن التوفيق حفظ التجربة، والمودة قرابة مستفادة، ولا تأمنن ملولا".[2] | 2- الأخلاق والصفات الحسنة بنية نفسية متجسدة. |
| | | 3- "بكثرة الصمت تكون الهيبة، وبالنصفة يكثر المواصلون، وبالأفضال تعظم الأقدار، وبالتواضع تتم النعمة، وباحتمال المؤن يجب السؤدد، وبالسيرة العادلة يقبر المناوي وبالحلم عن السفيهِ تكثر الأنصار عليه".[3] | 3- فضائل رافعة، وأعمال هي أمارات الحياة. |

| | | | |
|---|---|---|---|
| | | 4- "كفى بالقناعة ملكا وبحسن الخلق نعيما (وسئل عن قوله تعالى: ﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾ فقال هي: القناعة".[86] | 4- تعتبر القناعة مراقبة للنفس من كل تفلت نحو المطامع المفسدة. |
| الرابعة | خطورة النفس | 1- "شيطان كل إنسان نفسه".[87] | 1- تتحول النفس إلى عدو إن لم تهذب وتزكى. |

إن الحياة النفسية هي بوصلة الكائن البشري إلى السعادة ويصبح دور الإنسان في ضبط وتوجيه حركة الذات يكاد يكون هو التكليف الشرعي/ الكوني الملقى على كاهل الإنسان، وإن كتاب النفس يعتبر في مثل هذا الحال هو الكتاب المعد للقراءة قال تعالى: **﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾**. هذا الإبصار هو العلامة الكامنة في داخلنا- إن تحققت- لإدراك شيفرة الدلالة النفسية، ومن هنا يصبح امتلاك عالم النفس وفهمه وتحريك أدواته لتعمل بأريحية لتصنع الحياة النامية هو قدس وقبلة التوجه أولا، وهو مقدم عن اكتشاف الكتاب الآخر، كتاب الكون، ثم الكتاب المسطور = القرآن، هداية الإدراكين، وهو البصيرة القائدة إلى ذلك الانفتاح المنطلق من الأرضي إلى السماوي، إلى الله.

### 3- الحياة الروحية:

رأينا سابقا أن الإنسان والفرد باعتباره كائنا حيا يهدف إلى إثبات ذاته في هذا الكون انطلاقا من ممارسته لحياته في بعدها النفسي والجسدي، إلا أن هذا لا يوقفه عند حدود تسطح وجوده وتفرغه من معناه، ومن الوصول إلى حالة أكثر عمقا ودلالة وبرهانا يستشرف به ويتطلع إلى ارتياد كامل في الجوهر والمعنى، ولن يتحقق هذا إلا إذا كانت حياته قد أخذت سبيلا ثانيا يجنح بها إلى ملامسة باطنية روحية، لأن النفخة الإلهية في الكائن، التي أحيت هذا الطين وجعلته قائما هي سر وكنز يتعين أن يظهر ويكشف، وسنرى مع الإمام هذا الطريق الذي تعبده الاستقامة، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام لذلك الرجل ناصحا و ملخصا: **"قل آمنت بالله ثم استقم"**،[88] بمعنى أن يجسد الإيمان فكرة وتنزلا وواقعا حياتيا يراه صاحبه رأي العين، ويدرك الناس إثماره جليا، وفي هذا

يقول الإمام: "نفسه منه في عناء، أتعب نفسه لآخرته، وأراح الناس من نفسه"،[89] فقيادة النفس هي مسؤولية الإنسان، وهذه المسؤولية لا تتم إلا بشغلها بالأعمال والعبادة دون أن يترك لها فرصة الخوض في غير هذا، تطهيرا لها، حتى تكون في مفازة ومبعدة عن كل أذية، فحياة الروح هي العمل الدؤوب على طريق الاستقامة، وهي الثمرة المحصلة في النهاية، في الحياة الثانية، أي الآخرة. ويجعل الإمام آية الاستقامة وحياة الروح في هذه الجملة المركزة، حيث يقول: "ولا يدخل في الباطل، ولا يخرج من الحق".[90] هذا الإلزام الإنساني بين خطي الدخول/ والخروج، وبين الباطل/ والحق هو انتصار هذا الكائن وأخذه لمعلم خطه المستقيم في الحياة، ليتماثل في الحياة الآخرة مع الصراط المستقيم وأنه الثبات المضيئ.

يقدم الإمام معالم هذا الخط الروحي، ومسلك الاستقامة هذا ومتحدثا عن أهلها، حيث يقول: "وأما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلا يحزنون به أنفسهم، ويستثيرون دواء داءهم، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعا، وتطلعت نفوسهم إليها شوقا، وظنوا أنها نصب أعينهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم وظنوا أن زفير جهنم وشهقتها في أصول آذانهم، فهم حانون على أوساطهم، مفترشون لجباههم، وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم، يطلبون إلى الله تعالى في فكاك رقابهم.

وأما النهار فحلماء علماء، أبرار أتقياء، قد براهم الخوف بري القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى، وما بالقوم من مرض".[91]

تتحرك النفس من خلال هذا التوصيف الروحي من الإمام لأولئك الذين استقاموا مع طريق الحق في عمل ليلي، وعمل نهاري، قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا**﴾.[92] عمل مبهر النتائج، وثمرته تلك اليقينية العالية، التي ترى ما هي مقدمة عليه رأي العين، وهذه هي صورها الماثلة، التي نحددها هنا بوظائفها و أهدافها:

**أ. العمل الليلي:**

| العمل اللّيلي | شكله | الثمرة | الطريقة | الحالة |
|---|---|---|---|---|
| -صافون أقدامهم. | - قيام الليل. | - حزن النفس. | - الترغيب. | تمثل الآخرة بتصوير النعيم وتصوره = نعيم الجنة = تحقق. |
| -تالين لأجزاء القرآن. | -القراءة (تفاعلية). | - استثارة دواء دائم (علاج بالقرآن) | - الترهيب. مع أعمال الجوارح والبدن.. | وتصور العذاب = النار = تحققا وتمثلا. |

**التأويل**: لقد تحولت العبادة- الليلية- بوصفها آلية تحقيق الحياة الروحية إلى رؤية يقينية، هي عين اليقين، وهذه الرؤية تمثل مشهدا قائما مقربا لرقي الروح والنفس حتى ترتفع وتصل إلى الكمالات بفعل الصالحات. "وهذا كله تعرج به النفس في درجات الكمال".[93] وعروجها هو الحياة الروحية.

**ب. العمل النّهاريّ:**

| العمل النّهاري | شكله | الثمرة | الطريقة | الحالة |
|---|---|---|---|---|
| - حلماء، علماء.<br>- أبرار، أتقياء. | - العقل.<br>- القلب. | - براهم الخوف.<br>بري القداح. | - الخوف. | نلاحظ هنا انعكاس العمل الليلي على شكلهم الحياتي في النهار فتحقق لهم: العلم، والحلم، والبر والتقوى، فزادهم هذا رقة ولطفا، في نقاء |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| | | | | وطهارة، كما أن السعي النهاري هو لبنة ثابتة كلبنة الليل، والمعرفة المحصلة هي ضوء إلى الكمال إلى الروح تجلي استقامة الإنسان. |
| -لايرضون من أعمالهم القليل.<br>-لا يستكثرون الكثير فهم لأنفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشفقون.<br>-"إذا زكي أحدهم خاف.."[94] | - الحذر. | - عدم الثقة المهلكة والمؤهلة لمواصلة العمل والتي تجنبهم تزكية هذه النفس. | -الانضباط والعمل المتواصل. | - مراقبة دائمة وانضباط مؤسس، وبهذه الكيفية تسمو النفس وتترقى لبلوغ حالة الروح والاستقامة، وهذا هو طريق الكمال. |

**التأويل**: إن استقامة السلوك النفسي في حياة الفرد، يتحقق بفضل هذه الرياضة المستمرة، وصولا إلى حياة الروح، حيث تشارك مختلف القوى في هذا الصنيع: النفس والجسد والعقل، وهذا ما بجعل الآخرة ترى رأي العين، ومثل الفهم إذا أدركه الإنسان، فلا شك أنه ينبئ عن روح طيبة وارتفاع، وأن صاحبه يتحرك في رسم صورة حياته من رفيع إلى أرفع، وهذا باجتهاد تام في الليل والنهار فيه الحكمة والحلم والصبر والعمل، وبالتالي فالحياة الروحية هي فعل كلي متلازم في كل الدقائق ومختلف التفاصيل، وهي حركة راقية، لأنها مبدأ الإنسان الفاضل، ومن ثم صار جسده بالعبادة آلية الروح، رسالة قائدة إلى ذلك العالم الخفي، وهذا إدراك متمايز.

ويثبت الإمام هذا المنزع النبيل في حركة النفس إلى الخافيات، دلائل الحياة الروحية أن هذا المسعى يتحقق بفضل المحافظة على الحظ العبادي والسهر في هذا الطريق لاستكمال فضائل النفس، حيث يقول: "طوبى لنفس أدت إلى ربها فرضها وعركت بجنبها بؤسها، وهجرت في الليل غُمضها، حتى غلب الكرى عليها، افترشت أرضها وتوسدت كفها في معشر أسهر عيونهم خوف معادهم، وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم، وهمهمت بذكر ربهم شفاههم، وتقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم **"أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون"**. فاتق الله يا حنيف، ولتكفك أقراصك، ليكون من النار خلاصك".[95] ومن ثم فالحياة الروحية هي ثمرة العمل المتواصل، والذي يتلخص في إخضاع هذه النفس ومراقبتها، وامتثالها للأمر الإلهي، في ليل خاص هو ليل الأتقياء العباد، لأن "حقيقة الإنسان إذا ليس هي بدنه الذي يؤمر فيأتمر، ويُساق فيتحرك، ويسخر فيلزم ما يملى عليه أو يرسم له، بل هي المزاج المعنوي الذي يجمع اتجاهات الطبع والغرائز والعاطفة والفكر في نسق واحد، أو كيان نفساني يطبع سلوك صاحبه بطابعه الخاص، ويرسم له في أذهان الناس شخصية متميزة عمن سواها.

هذا المزاج المعنوي، أو هذا الكيان النفسي هو حقيقة المرء التي تهب له وجوده المستقل، وتميزه بخصائصها الذاتية فلا يماثله فيها أحد".[96] وبهذا يخلق هذا المزاج والحالة المعنوية التي ترتفع فيها النفس إلى مراتب عليا تكتمل فيها الأسس الجوهرية في هذا البناء الروحي من اشغال النفس بالحق، إلى جعلها تحلق في معالي الأمور، وهي تحتاج في كل هذا إلى ضبط هذا العالم وتنظيم مطالبها المختلفة وأولوياتها، كل هذا يدخل الإنسان إلى عالم روحي متوازن.

ولذا فإن حصول النفس على سعادتها وعلى هذا المراد الأعلى، لن يكون إلا بما يلزم، وهذا ما نوضحه بالشكل الآتي:

| الحالة الروحية | الدّرجة | الصّورة والشّكل | التّصنيف |
|---|---|---|---|
| - أداء الفرض.<br>- عركت بجنبها بؤسها. | - سقوط الجسد من التعب إعياء.. | - سهر العيون خوف المعاد. | - هم حزب الله<br>- وهم المفلحون. |

| | | | |
|---|---|---|---|
| - هجـــرت في الليـــل غمضها.<br>- افترشت أرضا.<br>- توسدت كفها. | | - جفاء المضاجع.<br>- الــذكر = شــفاه ذاكــرة لربها<br>- الاستغفار... | |

ولهذا وضع الإمام لابن حنيف في ختام حديثه استشعارا دالا يأخذ به كل تقي يريد أن يتقلب في هذا العالم الروحي النوراني: "ولتكفك أقراصك، ليكون من النار خلاصك"، وعليه فإن ملخص هذا الطريق أنه يتحقق بهده القاعدة: العمل الروحي العبادي المستمر، وصورته هي التعب، وثمرته: السعادة = وهي الجنة.

تقوم الحياة الروحية كتتويج نهائي لانعتاق يحصل بما يلي:

1 – استثمار للطاقات والقدرات.

2 – استثمار لكامل الوقت (أي الحياة = ليلا ونهارا)= العمر الصغير المحدد.

3 – استثمار بالكلية، أي إن يكون الكائن بكليته عاملا لله.

وهذه هي الاستقامة التامة، والانضباط الشرعي والاجتماعي والكوني، ومن ثم فالحياة الروحية هي السير على الهدى دون مخالفة، تطبيقا واعيا ذكيا، وبهمة عالية، فالحياة الروحية استقامة محققة لنيل الحياة الآخرة، وتكون قد تحققت للإنسان بعد الاستقامة في الحياة الدنيا.

## خاتمة:

إن الغاية التي خلق من أجلها الإنسان قائمة بشروطها التي لا تتبدل، كما أنها تحتاج إلى تهيئة لازمة مناسبة، وهي لاتتم إلا بحيوية ونفس متألقة، وحكمة وروية، حفاظا على الجسد ليعمل وينشط، وتنشط معه قوى النفس والعقل والروح، وما يناط بالإنسان تكليفا القيام به، وعليه يمكن أن نؤكد على استخلاص ننتهي إليه من كل هذا:

1 – أن النفس فكرة، كما أن فهم النفس وميكانيزم عملها، هو فهم للإنسان ولدوره.

2- إن قضية التذهين هي الإشكال الذي يعترض عملية التكوين والبناء السوي والسليم، وبه تتحدد فكرة تقوى النفس أو فجورها.

3- إن أنواع الحياة المحددة للذات لا فصل بينها، إلا لاعتبار ضروري، واعتبار تدرجي ونزوعي نحو الأمثل والأكمل.

4- تعد المبادئ الخمس الموضحة في بداية المقال نقاطا مفتاحية تسهم في وضع تصور دقيق لفهم المركب النفسي وآلية اشتغال النفس، فبين هذه الأضلاع يوجد سر النفس، وكشف هذا يزيل كثيرا من المخاطر والالتباسات، ومن خلالها نجد مفتاحا نفهم به الذات الإنسانية، قبل أن نقدم على فهم المجتمع والكون.

## الإحالات:

[1] ابن فارس: مقاييس اللغة، تح أنس محمد الشامي، دار الحديث، القاهرة، 2008، ص 910.

[2] ابن منظور: لسان العرب، مج 8، دار الحديث، القاهرة، 2002، 647-648.

[3] سورة الحجر - الآية 29.

[4] ابن مسكويه: الفوز الأصغر، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص 53.

[5] الشريف الجرجاني: التعريفات، تح محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، ص 204.

[6] سورة الشمس - الآية 7/ 8/ 9/ 10.

[7] سورة ص - الآية 28/ 29.

[8] جودت سعيد: كن كابن آدم، دار الفكر دمشق، دار الفكر المعاصر بيروت، ط2، 1997، ص 48.

[9] محمد أبو القاسم حاج حمد: حرية الإنسان في الإسلام، دار الساقي، بيروت، ط1، 2012 ص 48.

[10] سورة السجدة – الآية 9.

[11] محمد أبو القاسم حاج حمد: المرجع السابق، ص 48/ 49.

[12] جودت سعيد: المرجع السابق ص 234.

[13] سورة التوبة – الآية 70.

[14] سورة الأنبياء – الآية 87.

[15] سورة الطلاق – الآية 1.

[16] مصطفى ناصف: مسؤولية التأويل، دار السلام، القاهرة، ط1، 2004، ص 173.

[17] المرجع نفسه ص 184.

[18] خالص جلبي: فلسفتي، مركز الناقد الثقافي، دمشق، ص 119.

[19] سورة الرعد – الآية 11.

[20] سورة الجاثية – الآية 4.

[21] سورة الذاريات – الآية 21.

[22] سورة فصلت – الآية 53.

[23] سورة القيامة – الآية 14/ 15.

[24] جودت سعيد: حتى يغيروا ما بأنفسهم، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1993، ص 117.

[25] المرجع نفسه، ص 121.

[26] المرجع نفسه، ص 119.

[27] خالص جلبي: سيكولوجية العنف واستراتيجية الحل السلمي، دار الفكر بيروت، ط1 1998، ص 118.

[28] سورة الزخرف – الآية 22.

[29] مصطفى ناصف: قراءة ثانية لشعرنا القديم، دار الاندلس للنشر والتوزيع بيروت، ص 69.

[30] خالص جلبي: المرجع السابق، ص 202.

[31] خالد آغة القلعة: السيرة المفتوحة للنصوص المغلقة، دار كنمعان دمشق، ط1، 2001، ص 109.

[32] جودت سعيد: الدين والقانون، رؤية قرآنية، دار الفكر دمشق، ط2، 2002، ص 115.

[33] خالد آغة القلعة: المرجع السابق، ج3، ص 91.

[34] المرجع نفسه، ج3، ص 11.

[35] ينظر الراغب الأصفهاني: الذريعة إلى مكارم الشريعة، تح أبو اليزيد أبو زيد العجمي، دار السلام القاهرة، ط1، 2007، ص 73/ 74/ 88/ 95.

[36] ابن خلدون: المقدمة، دار الجيل، بيروت، ص 107.

[37] سورة الأعراف – الآية 179.

[38] ابن منظور: لسان العرب، مج 02، ص 130.

[39] – ابن فارس: مقاييس اللغة، ص 167.

[40] – المصدر نفسه، ص 167.

[41] – الشريف الجرجاني: التعريفات، ص 68.

[42] – المصدر نفسه، ص 68.

[43] – علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، شرح محمد عبده، دار الكتاب العربي، بيروت، 2005، ص 253.

[44] – ينظر نهج البلاغة، ص 253.

[45] – عباس محمود العقاد: الإنسان في القرآن الكريم، مطبعة نهضة مصر، ص 23.

[46] – علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 274.

[47] – المصدر نفسه، ص 253.

[48] – المصدر نفسه، ص 253.

[49] – المصدر نفسه، ص 468.

[50] –تد هاريس، آن لاغريستروم: أنصت إلى ذاتك، تر، أثمار عباس، دار نينوى دمشق، 2012، ص 39.

[51] – علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 441.

[52] – تد هاريس، آن لاغريستروم: المرجع السابق، ص 47.

[53] – إبراهيم الكوني: ديوان البر والبحر، اللجنة الشعبية العامة للثقافة و الإعلام، ليبيا، ط2، 2007، ص 60.

[54] – علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 452.

*– إشارة إلى الحديث النبوي الموجه للشباب في حياتهم حتى يتحصنوا من مخاطر الشهوة التي تعصف بالجسد كطاقة ضرورية لإنجاح الحياة بعد ضبط المعالم الموجهة للجسد ليتوازن، ".. **من استطاع منكم الباءة فليتزوج**".(صحيح مسلم ج2 باب استحباب النكاح).

[55] – سورة البقرة – الآية 247.

[56] – علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 329.

[57] – محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 329.

[58] – المصدر نفسه، ص 329.

[59] – حسين العمري: الخطاب في نهج البلاغة، بنيته و أنماطه و مستوياته، دراسة تحليلية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2010، ص 237.

[60] – ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، تح محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998، مج7، ج13، ص 11.

[61] – علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 329.

[62] – حسين العمري: المرجع السابق، ص 239.

[63] – سورة الإنسان – الآية 2.

* – إشارة إلى قوله تعالى: (﴿**ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم**﴾، ﴿**ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم**﴾) البقرة 221. حيث فضل الإيمان على جمال الجسد، بمعنى أن الإيمان هو الذي يمنح خصوصية له.

[64] – محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 329.

[65] – المرجع نفسه، ص 329.

[66] – حسين العمري: المرجع السابق، ص 239.

[67] – مجدي عبد الحافظ: الوجود الإنساني متجسدا، مجلة عالم الفكر مج 43 ع1، 2014 ص 19.

[68] – المرجع نفسه، ص 30.

[69] – الإمام علي: نهج البلاغة، ص 362.

[70] – محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 362.

[71] – خالد آغة القلعة، السيرة المفتوحة للنصوص المغلقة، ج1، ص 75.

[72] – علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 362.

[73] – محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 362

[74] – المصدر نفسه، ص 362.

[75] – فريديريك نيتشه: هكذا تكلم زرادشت للمجتمع لا للفرد، تر، فليكس فارس، دار الأهلية، الأردن، ط1، 2009، ص 88.

[76] – عبد الغاني أحمد زيتوني: الإنسان في الشعر الجاهلي، مركز زايد للتراث و التاريخ، العين، الإمارات، ط1، 2001، ص 57.

[77] – علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 238.

[78] – محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 238.

[79] – ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مج5، ج10، ص 10.

[80] – علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 238.

[81] – محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 238.

[82] – محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ص 238.

[83] – ابن أبي الجديد: شرح نهج البلاغة، مج 5، ج 10، ص 11.

[84] – علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ص 448.

[85] – محمد الغزالي: الحق المر، مكتبة التراث الإسلامي القاهرة، دار الشهاب، باتنة، ص 80.

[86] – ينظر نهج البلاغة، الصفحات على التوالي:

مج1 [1(43)/ 2(43)/ 3(369)/ 4(43)/ 5(458)]–

مج2 [1(376)/ 2(369)/ 3(186)]– مج3 [1(461)/ 2(462)/ 3(464)/ 4(464)].

[87] – ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة، مج10، ج20، ص 154.

[88] – أحمد بن حنبل : مسند أحمد، تح شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، ط1، 2001، ج24، ص 142.

[89] – علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 286.

[90] – علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 286.

[91] – المصدر نفسه: ص 284، 285.

[92] – سورة الفرقان – الآية 62.

[93] – عبد الحميد ابن باديس: تفسير ابن بديع في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2002، ص 74.

[94] – علي بن أبي طالب : نهج البلاغة، ص 285.

[95] – المصدر نفسه، ص386.

[96] – محمد الغزالي: جدد حياتك ، دار الرشاد، قسنطينة، ص 152.

تاريخ الإيداع/ 12/ 02/ 2016